

تمثيلية تاريخية

بين الامام النووي

للاستاذ : أحمد حسن القضاة

١ — الامام النوى — هو ابو زكريا محيى الدين او يحيى بن شرف الملقب بالنوى نسبة الى بلدة (نوى) فى بلاد الشام . كان فقيها كبيرا ، ومحدثا عظيما ، ومؤلفا من أشهر مؤلفاته : شرح صحيح مسلم المسمى (المنهاج فى شرح مسلم بن الحجاج) — منهاج الطالبين فى مختصر المنهر للرافعى — الروضة — وهى مختصر الشرح الكبير للرافعى — بستان العارفين — الإنكار النووية — التقريب — الاشارات لبيان أسماء الجبهات — الترخيص بالقيام لذوى الفضل والمزية من الأنام — خلاصة الأحكام — المجموع فى شرح المهذب (وقد أعجلته المنية عن إتمامه فاتمه من بعده اسماعيل الحسباني) .

ولد الإمام النوى فى اوسط المحرم عام ٦٣١ هـ وتوفى فى الرابع والعشرين من رجب عام ٦٧٦ هـ .

٢ — السلطان بيبرس — هو الظاهر بيبرس البندقدارى المملوكى ، تركى الأصل ، اشتراه احد الملوك الايوبيين فاخذ يرتقى فى مناصب الدولة حتى صار قائدا للماليك وسلطانا على مصر والشام ، بعد زوال الايوبيين . وقد قام باعمال عظيمة ، وقدم للامة الاسلامية خدمات كبيرة منها اشتراكه فى معركة عين جالوت المشهورة ومحاربته للصليبيين والتتار . كما قام باعمال عمرانية وإصلاحية فى مصر والشام . توفى فى دمشق عام ١٢٧٧ ودفن فيها .

والسلطان بيبرس

الأمير بدر الدين : إذا كان هنالك من فضل على هذا النصر الذي أحرزته جيوشنا فذلك راجع أولا — كما تفضلتم يا مولاي — الى توفيق الله تعالى ، ثم الى قيادتكم الحكيمة واستبسالكم أنتم في المعارك حتى فتح الله علينا أبواب النصر ، وهزمنا الأعداء ..

أحد القواد : صدق — والله — الأمير يا مولانا .. فقد كنت القائد الأعلى للجيوش .. وكنت في طليعة الجند ، شاهدنا ذلك بأم أعيننا ..

أحد الوزراء : ليحفظ الله مولانا السلطان ، وليجزه عن المسلمين خير الجزاء ..

الوزراء والقواد (بصوت واحد) : آمين .. آمين .

السلطان : بارك الله بكم ، وشكرا لكم على حسن ثقتكم بنا ، ونحمد

يبدو السلطان الظاهر بيبرس ، وقد عاد لتوه من الجهاد ، بعد أن أجلى الصليبيين والتار عن بلاد الشام ، جلس في ديوانه يحف به وزراؤه وقواده .

السلطان (موجهها كلامه الى الوزراء والقواد) : ها قد شاعت القدرة الإلهية بأن نتصر أخيرا على أعدائنا الذين عانت منهم الأمة ما عانت من الظلم والفساد . فالحمد لله على هذا النصر ، والفضل له أولا وآخرا . وشكرا لكم ايها القواد على بسالتكم في الحرب واستماتكم في سبيل الحق .

الأمير بدر الدين الخازندار وزير الحربية والقائد العام للجيش : إن أذن لى سيدي السلطان في الكلام .. السلطان : تكلم ايها الأمير القائد .. ما عندك ؟

الحاجب : ادخل يا كاتب الديوان
الى مقام حضرة السلطان
يدخل الكاتب .

الكاتب : السلام على مولاي
السلطان ورحمة الله
وبركاته .

السلطان : يا كاتب الديوان ، اكتب
امرنا بأن تكون بساتين
الشام كلها ملكا للدولة
والجيشر . وكل مالك
يعجز عن إثبات ملكيته
لبستانه أو أرضه بأوراق
رسمية سيعتبر فاقدا له .

كاتب الديوان : ولكن يا مولاي ..
هذه البساتين والأراضي كانت ملكا
لأصحابها قبل وصول الأعداء
واستيلائهم عليها ، وكثير منهم قد
ورثها أبا عن جد . وقد أتلّف الأعداء
الأوراق الرسمية للبلاد .. مثلها مثل
أى أوراق رسمية أخرى .

السلطان : اذا القيت إليك بأمر
فعلبك بالتنفيذ ولا تمترض أمرى .
أفهمت ما قلت ، أخرج الآن وأعلن
للناس أمرى هذا .

الكاتب (وقد أخذته رعدة) :
سمما وطاعة يا مولاي ، سأعلن
أمركم السامى على الشعب فى
الحال .

يخرج الكاتب مذعورا ليذيع الأمر
على عامة الشعب .. الناس يتذفرون
ويصيحون .. جلبة وضوضاء ،
وأصوات وصخب .. بعض الناس
يلجأون الى الوزراء والقواد ،

الله الذى أنقذ هذه الأمة من شر
الأعداء وظلمهم .. لينفضّ مجلسكم
الآن ، ولتقمّ الحفلات احتفاءً بهذه
المناسبة السعيدة .. انصرفوا أيها
القوم .

ينصرف من فى المجلس ، كما يذهب
بعض الجنود لإبلاغ الناس أوامر
السلطان لإقامة الحفلات ومعام
الزينة ابتهاجا بالنصر ..

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

السلطان فى ديوانه يجلس مطرقا ،
مفكرا ، باديا عليه الاهتمام الزائد ،
سيما وقد أجسدت البلاد ، وقتلت
الأمطار ، وأنهكت الدولة بحروبها مع
الصليبيين والتتار ، كما أن المغول ما
انفكوا يغيرون على الدولة كلها
سنحت لهم فرصة .. ثم ما يلبث أن
يستدعى الحاجب .

السلطان : أيها الحاجب !
الحاجب : أمر مولاي مطاع .
السلطان : ادع لى كاتب الديوان .
الحاجب : سمما وطاعة يا مولاي .

يذهب الحاجب فيستدعى كاتب
الديوان . يحضر الكاتب برفقة
الحاجب . يدخل الحاجب وحده على
السلطان .

الحاجب : ها قد حضر كاتب ديوانكم
الموقر يا مولاي ، وهو
بالباب واقف .
السلطان : ليدخل .

على القضاء والفتيا ،
ونائبى على الخزينة ..
ليحضروا جميعهم فى
الحال .

الحاجب : حالا يا مولاي .

يحضر النواب جميعهم بمد ساعة .
السلطان : ايها النواب ، إني
أمركم جميعا بقطع ماهيات الشيخ
النووى وبغزله عن جميع مناصبه .
النواب : أمر مولانا مطاع ،
فلتقطع جميعها ، وليعزل من مناصبه .
السلطان : يا حاجب !
الحاجب : نعم يا مولاي .

السلطان : ادع لى الشيخ ابن النجار
وأعضاء مجلس ديوانى
وقوادى لنستطلع رأيه
— أمامهم — فى مسألة
الحوطة على الأراضى .

الحاجب : سيحضر أعضاء المجلس
وابن النجار فى الحال
يا مولاي .

♦♦♦ ♦♦♦

فى قصر السلطان .. يدخل أعضاء
مجلس الديوان كما يدخل ابن النجار
وهو شيخ وعالم سوء ، من الذين
يتجرون بالدين ويصطادون فى الماء
العكر ولا يتورعون عن إصدار
الفتاوى والمسائل المفلوطة فى سبيل
نيل شهرة كاذبة ، أو شهوة عابرة ،
أو منصب وظيفى زائل ، وذلك على
حساب العلماء الأتقياء ، والرجال
الشرفاء .

وآخرون الى العلماء والشييوخ ..
ولكن دون جدوى .. وبعضهم يذهب
الى الامام النووى — عالم الأمة
الاسلامية فى الشام آنذاك —
فيطمئنهم الامام الى أنه سيكتب الى
السلطان ويراجعه فى هذا الأمر ..
وفعلا يكتب الامام رسالة وأنية
يدافع فيها باسم الشعب عن أملاكهم
ويقول :

(.. وقد لحق المسلمين بسبب
هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من
الضرر لا يمكن التعبير عنها ، وطلب
الاثبات منهم لا يلزمهم . فهذه الحوطة
لا تحل عند أحد من علماء المسلمين ،
بل من فى يده شيء فهو ملكه لا يحل
الاعتراض عليه ولا يكلف إثباته . وقد
اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب
العمل بالشرع الشريف ويوصى نوابه
به ، فهو أولى من عمل به ، والمسئول
عن إطلاق الناس من هذه الحوطة
والانحراج عنهم جميعهم فاطلقتهم
أطلقك الله) .

تصل الرسالة مسامع السلطان
فتأخذه العزة ، ويسبب ثاء كثيرا
— لما للامام النووى من كلمة مسموعة
نافذة ، وتأثير قوى بين أفراد
الشعب — فيقرر تجريد الامام من
مناصبه .

السلطان (بغضب شديد) : ايها
الحاجب !

الحاجب : نعم يا مولاي .

السلطان : ادع لى نائبى على
ولاية الشام ، ونائبى

جاحدا للنعمة ، فلا يتناول على مولانا السلطان ويخرج على الملة ، ويفتى بغير علم ، وهو الذى كان يتربع على سدة مناصب عظيمة فى الدولة . . لم يصل اليها عالم فى يوم من الايام . السلطان : يا ابن النجار ، قد قلدناك جميع مناصبه ووظائفه التى يشغلها فى مملكتنا ، فماذا تقول ؟ ابن النجار : لى الشرف العظيم ان انفذ رغبة مولاي .

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

بعد هذه الاحداث لم يياس الامام النووى من متابعة النصيح للسلطان ، ولم ينطو على نفسه فى بيته — كما فعل كثير من العلماء — وانما اصر على مجابهة الموقف بصبر وايمان . بدأ المعركة بتوجيه رسالة خطية الى المنافق الشيخ ابن النجار جاء فيها : (اعلم ايها المقصر فى التأهب لمعادته انى كنت لا أعلم كراهيتك لنصرة الدين ونصيحة السلطان والمسلمين حملا منى لك على ما هو شأن المسلمين من احسان الظن بجميع الموجودين ، وربما كنت اسمع فى بعض الاحيان من يذكر بعض المسلمين فانكر عليه بلسانى وقلبى ، لاني غيبة لا أعلم صحتها ، ولم ازل على هذه الحال الى هذه الايام ، فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان — وفقه الله الكريم للخيرات — ان هذه البساتين يحل انتزاعها من اهلها

السلطان : ما تقول يا ابن النجار فى امر هذه البساتين والاراضى بعد ان خلصناها من ايدى الاعداء ، الا يحق لنا ان نضربها الى خزانة الدولة والجيش ما دام ليس هناك من قيود رسمية تثبت ملكيتها لاحد من الشعب ؟

ابن النجار : بلى يا مولاي . ومن افتى بغير ذلك فقد ظلم نفسه وظلم السلطان . عليك يا مولاي باصدار اوامرك للاستيلاء عليها باسم الحوطة لمنفعة الدولة والجيش .

السلطان : اسمعتم ما يقوله شيخنا ابن النجار يا وزرائى وقوادى العظام ؟ وهل وصل مسامعكم ما افتى به الشيخ النووى من عدم جواز تملكها للدولة بسبب انها تعود الى عامة الناس ؟ وما قام به من تأليب الناس وتحريضهم علينا ؟

احد اعضاء المجلس المنافقين : لا عليك يا مولانا . فالشيخ النووى افتى ولم نقبل بفتواه ، والشيخ ابن النجار افتى وقد قبلنا بفتواه . فلناخذ بما قبلنا به ولندع الشيخ النووى وفتواه .

وهنا تسنح فرصة الشيخ ابن النجار ليوغر صدر السلطان على الامام النووى ليتسلم مناصبه بعد عزله عنها ، فيقول :

ابن النجار : ما كان اجدر بذلك الشيخ (ويقصد الامام النووى) يا مولاي ان لا يكون ناكرا للجميل ،

والقائد المظفر ، يا قاهر الكفار
والتتار !! أتود أن تتوج انتصاراتك
الباهرة ، وجهادك العظيم بهذه
النقيصة الخسيسة التي تسمونها
(الحوطة) على أراضى الأمة لتكون
ملكا للدولة ؟ ما عهدنا سلطان
المسلمين القائد المادل أن يتصف
بالجور والظلم لا قدر الله ، بل عهدناه
قائدا بارزا في الجهاد ، وإماما عادلا
في الحكم . أيرضى حضرة السلطان
وهو الهادم للظلم بأن يهدمه في جهة
وبينيه في جهة أخرى ؟

إنى أيها السلطان لا أطمع من وراء
نصحي هذا إعادة منصب لي فقدته
أو لقاء عرض زائف من أعراس هذه
الدنيا الفانية تمنحه لي ، ولكنني أنصح
وأذكر ابتغاء وجه الله ومرضاته ..
أنصحك بالعدول عن ضم تلك الاملاك
الى خزينة دولتك فتسخط الله عليك ،
وأن لا تسمع لعلماء السوء والمنافقين
الذين يزينون لك الظلم ، ويفتون
بغير علم ..

تأخذ السلطان رهبة لهول الكلمات
التي القاها عليه الامام ، فيرقّ قليلا
ويأمر الامام بالجلوس ، ويدعو
الحاجب .

السلطان : اذهب أيها الحاجب
وادع لي كاتب الديوان .

الحاجب : أمر مولاي مطاع .

بعد قليل يحضر كاتب الديوان .

السلطان : أيها الكاتب ! أعلن
للناس أن السلطان قد عدل عن ضم
أراضى العامة الى الدولة .. وكل من

عند بعض العلماء ، وهذا من الافتراء
الصريح والكذب القبيح .. فلما
افتري هذا القائل في أمر البساتين
ما افتراه ودلس على السلطان ،
وأظهر أن انتزاعه جائز عند بعض
العلماء وغش السلطان في ذلك وبلغ
ذلك علماء البلد .. وجبت على هؤلاء
العلماء نصيحة السلطان وتبيين الامر
له على وجهه .. ثم انى لاتعجب غاية
العجب من اتخاذك اياي خصما
— يا حبذا من اتخذ — فانى بحمد الله
تعالى أحب في الله تعالى وأبغض
في الله تعالى فأحب من أطاعه
وأبغض من خالفه .. فيا ظالم نفسه
.. انا ما خاصمتك أو كالمتك أو
ذكرتك أو بينى وبينك مخاصمة فما
بالك تكره فعل خير يسرنى الله الكريم
له ؟) .

ثم يتوجه الامام الى السلطان
لينصحه مشافهة "مهما كلفه ذلك من
ثمن ..

الامام النووي (بباب قصر
السلطان موجهها كلامه للحاجب) :

أذن لي من السلطان بالدخول .
يدخل الحاجب ويعود بالاذن
بالدخول ، فيدخل الامام ويسلم على
السلطان .

السلطان : ما وراءك يا شيخ ؟
الا زلت تحرض الناس على أن
يشغبوا علينا ، ويقفوا في غير
صفنا ؟

الامام : حيا الله السلطان ، ونفع
به الأمة .. أيها السلطان المهيب ،

على الامام النووى .. سيما وقد
عرف أخيرا أنه كان السبب المباشر
فى اقصائه عن مناصبه ، فبييت فى
نفسه الشر له .

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

ما انفك الشيخ ابن النجار يكيد
ويدس على الامام النووى امام اتباع
السلطان ، حتى عاد فقربه اليه
السلطان من جديد ..
طلب يوما الإذن بالدخول على
السلطان فأذن له .

ابن النجار : مولاي ، تعلمون أن
مصلحة الامة والدفاع عن البلاد
يقتضيان أموالا طائلة ، ونفقات
كثيرة . وكما أعلم فالخزينة لا تكفى
دفع نفقات هذا العام كمصروفات
للجند وغيرها بسبب الجذب وقلة
الأمطار .

السلطان : وما ترى يا ابن النجار؟
ابن النجار : الراى لمولاي أولا
وآخرًا ، ولكنى أدلى هنا برأى
المتواضع ولا أحمل عليه مولاي
السلطان .

السلطان : اذا كان برأيك صواب
قبلناه ، هات ما عندك .

ابن النجار : أرى يا مولاي أن
تفرض ضرائب جديدة على الناس
حتى تظل الدولة فى منعة وقوة
للتصدى لغزوات المغول والتتار الذين
نخشى أن يعيدوا الكرة فيحتلوا البلاد

كان واضعا يده على قطعة أرض قبل
غزو الأعداء لهذه البلاد فليعد اليها ،
فتلك ملك له .

الكاتب (فرحا ، متثقلا ببصره بين
السلطان والامام) : سمعا وطاعة
يا مولاي ! نصر الله السلطان وأعز
ملكه ..

يخرج الكاتب مهرولا خشية أن
يتراجع السلطان عن قوله . كما
يخرج الامام بعد أن يستأذن السلطان
الناس يفرحون لإعادة أراضيتهم
اليهم ، والسلطان - فى شدة
غضبه - يأمر بعزل ابن النجار عن
مناصبه التى ولاه عليها بدلا من الامام
والتي لم يرض على أمر تعيينه وعزله
سوى أيام .

السلطان : أيها الحاجب ! ادع لى
الشيخ ابن النجار .

الحاجب : سمعا وطاعة يا مولاي .
يذهب الحاجب ليحضر ابن النجار
ويعد قليل يدخل ابن النجار على
السلطان دون أن يعلم ما يخبؤه له
القدر .

ابن النجار : السلام على ولى
نعمتى مولاي السلطان .

السلطان (بفضب بادر على
وجهه) : يا ابن النجار قد جردناك
من جميع مناصبك .. اخرج .

ابن النجار (مذهولا ، مرتبكا) :
و .. و .. ولكن يا مولاي .
السلطان : قد امرناك بالخروج
فاخرج .

يخرج ابن النجار مشحونا بالفضب

الحربية والقائد العام للجيش طالبا اليه أن يكون وسيط خير لدى السلطان كي يعدل عن قراره . وقد شارك النووى فى كتابة هذه الرسالة بعض علماء زمانه ولكن فى حذر وإشفاق . تصل الرسالة عن طريق الامير الى السلطان ، فيغضب السلطان ويشتد غضبه .

السلطان (موجه الكلام للامير بدر الدين بعد أن قرأ الرسالة) :
أو قد اتخذ منك هذا الشيخ سفيرا أيها الامير لتقوم بحمل رسالته الجوفاء إلى ؟

الامير بدر الدين : يا مولاي ، انه كما تعلم شيخ جليل ، لا ينفك ينصح سيدى السلطان وينصح الأمة ، وما جربنا فيه شيئا من نفاق أو مداينة أو حب للدنيا .. أما تراه عابدا زاهدا ، ناصحا مجاهدا ؟

السلطان (وقد خف غضبه قليلا) :
ما عادت علينا نصائحه الا بالفقر (ملمحاً بذلك الى ضرورة فرض الضرائب) .

يخرج الامير بدر الدين دون أن يقتنع السلطان .

لكن الإمام النووى يأبى الا أن ينصح السلطان ، فيكتب اليه مباشرة رسالة أخرى صريحة ، دون خوف أو حساب لنتيجة ..

ويشاء الله أن يتراجع السلطان عن قراره بعد أن قرأ الرسالة ، وأن ينصاع لنصائح الامام .. ويعود الى جادة الحق والصواب ، فيأمر بالدعوة

من جديد ، سيما وهم لا يزالون يتحينون فرص ضعفنا للانقضاض علينا ..

السلطان : ولكن هذا يثقل كواهل العامة يا شيخ ، خاصة والعام عام جذب ، والناس فى حالة فقر .

ابن النجار : ولكن لا تنس يا مولاي أن هذه الضرائب لن تكون على الفقراء بل على التجار والأغنياء فقط .

السلطان : الراى ما تراه يا ابن النجار .. أيها الحاجب ! ادع لى وزير الخزينة .

الحاجب : سمعا وطاعة يا مولاي . يحضر الوزير بعد قليل .

السلطان : أيها الوزير ، قررنا ضرائب جديدة على الاغنياء والتجار ، كل حسب تجارته وثروته .

الوزير : ولكن ... يا مولاي .. هذا قد يؤدى الى تذمر الناس وغضبهم .. إذ بأى حق سنفرض هذه الضرائب عليهم ؟

السلطان : لقد قررنا ولن نتراجع . يخرج الوزير ليبدأ بصياغة القرار حسب الطرق الرسمية .

وبعد أن يتناهى الى سمع الناس هذا القرار يزداد استياءهم .. لم يسكت الامام النووى - كعادته -

على هذا القرار التعسفى ، فصمم على أن ينصح السلطان ليتراجع عن قراره . ولكنه أثر هذه المرة أن تكون النصيحة بطريقة غير مباشرة للسلطان . لذا فقد كتب رسالة الى الامير بدر الدين الخازندار وزير

الى اجتماع على مستوى عالٍ لرجال دولته ، ليتخذ قرارات جديدة ... ولكنها هذه المرة .. فى صالح الامة . السلطان : ايها الحاجب ! ادع لى مجلس ديوانى من وزراء وقواد وعلماء وعلى رأسهم الشيخ ابو زكريا النووى .

الحاجب : امر مولاي مطاع . يخرج الحاجب ويبلغ المعنيين بالطرق الرسمية المتبعة - لحضور الاجتماع فى قصر السلطان . فيجتمع المجلس . ويبدأ السلطان حديثه : السلطان : مرحبا بأعضاء مجلس ديوانى ، مرحبا بوزرائى وقوادى وعلمائى . اما وقد جاء الحق وزهق الباطل .. وكشفت لنا الايام عن الكثير الكثير .. فانى أرغب فى أن اطلعكم على ما يجول بخاطرى من مسائل .

احد الوزراء : فليتفضل مولانا السلطان ، وليطلعنا على ما يرغب .. ان شاء .

الجميع : نعم .. فليتفضل مولانا السلطان ..

السلطان : تعلمون انه حدثت أمور وقعت أحداث بعد جلاء العدو عن بلادنا ، وقد عرضت لنا مسائل كنا نرجع فيها الى مستشارينا وعلمائنا ، فمنهم من كان يؤيدنا ، ومنهم من كان يخالفنا . وكنا نأخذ برأى هذا ، ونمتنع عن رأى ذاك دون تريث أو تمحيص .. وقد ثبت لنا أن العلماء المؤيدين لنا كانوا إما منافقين

أو خائفين .. وأن العلماء غير المؤيدين كانوا علماء عاملين ناصحين ، لا يبغون من وراء ذلك جزاء الامة أو شكرها .. بل ابتغاء الحق ومرضاة الله . لذا فانى أشهدكم أن من كان منافقا وثبت نفاقه فسيلقى جزاءه لدينا .. ومن كان خائفا فسيفتن فى أمره .. ومن كان عاملا ناصحا فسيفتن فى مكانه الأسمى ، ونمنحه من العطايا والمناصب ما يرضى .

احد العلماء (خائفا) : ان شئت يا مولانا أن تبين لنا هذه الاصناف بأسماء ذويها ..

الجميع : بلى يا مولانا .

السلطان (وعلى وجهه امارات التهديد) : لا ... ليس ذلك الآن .. وإنى متيقن أن أكثركم كانوا يعرفونهم من قبل . أما الذين لا يعرفونهم اليوم فسنعزقهم بهم غدا .. عندما نضع كلائهم فى مكانه اللائق به ..

ينصرف كل من فى المجلس ما بين هياب وجل ، أو مسرور جذل . وينصرف ابن النجار ومن على شاكلته خائفا ، مذعورا ، موقنا انه لن يسلم هذه المرة من عقاب السلطان سيما وقد بانث الحقيقة وانكشف الزيف والنفاق ..

وينصرف الامام النووي رافع الرأس ، عزيزا .. وبرفقته زملاؤه العلماء الفضلاء .. بين تحية الجماهير وهتاف المسلمين بالدعاء لهم : بالتوفيق وحسن الجزاء ..